منظر في السديم (1-2)

ثم كان هناك ضوء

فيلم آخر للمخرج اليوناني العظيم ثيو أنجيلوبولوس أتيحت لي فرصة مشاهدته وهو ''منظر في السديم'' Landscape in the Mist، أنتجه و كتب له السيناريو (مع الإيطالي تونينو جويرا) في العام 1988 وحاز عنه العديد من الجوائز العالمية مثل: جائزة مهرجان فينيسيا كأفضل مخرج (إضافة إلى جائزة النقاد العالميين في نفس المهرجان) وجائزة مهرجان شيكاغو كأفضل فيلم وأفضل تصوير، و جائزة أفضل فيلم أوروبي للعام 1988.

هذا الفيلم -الذي يشكل الجزء الثالث من ثلاثية سماها أنجيلوبولوس ''ثلاثية الصمت'' و تشمل: رحلة إلى كيثيرا، و مربي النحل- يبدأ بالظلمة و ينتهي بالضوء.. و إن كان ضوءا مرئيا عبر السديم.

صبية في الحادية عشرة من عمرها تدعى(فاولا) وطفل في الخامسة يدعى (الكسندر) يعلمان من أمهما بأن أبيهما الغائب، الذي لم يرياه قط و لا يعرفانه أبدا، يعمل في ألمانيا، فيقرران السفر إليه دون علم أمهما.

هذا الأب حاضر في أحلامهما فقط، فالابن يراه في الحلم، وبهيئة مختلفة في كل مرة.. ''مرة أخرى حلمت به البارحة.. بدا أكبر من الأوقات السابقة''. أما الصبية فإننا نسمع صوتها -أثناء نومها- و هي تقرأ رسالة، لم تكتبها بل حلمت بها، موجهة إلى أبيها (بالأحرى هي ثلاث رسائل صوتية مقروءة في ثلاثة مواضع من الفيلم).

وهذه الرسائل مفعمة بالحنين و الخيبة، الأمل واليأس، الوجع والتفاؤل. إنها – أي الرسالة- وسيلة بسيطة وفعالة يوظفها المخرج ليؤسس صلة مباشرة مع الجمهور متيحا للمتفرج إمكانية الوصول إلى أفكار و مشاعر الصبية التي لا تجد من تعبّر له عن نفسها غير أخيها الصغير الذي لا يستوعب الأمور.

بقلم - أمين صالح

عن ثيمة البحث عن الأب يقول مخرج الفيلم أنجيلوبولوس: ''في كل أفلامي هناك شخصية تبحث عن أبيها.. لا أعني فقط الأب الحقيقي إنما مفهوم الأب كعلامة أو معنى أو رمز لما نحلم به. إن الأب يمثل ما نريده أو ما نؤمن به. هذا يعني أن البحث عن الأب هو في الواقع محاولة يقوم بها المرء للعثور على هويته في الحياة''.

و نحن لا نعرف حقا ما إذا كان هناك بالفعل أب يقيم و يعمل في الخارج أم أنه محض اختلاق. في أحد المشاهد، نسمع خالهما يقول لآخر: ''ليس هناك أب. ليس هناك ألمانيا. كل هذا محض أكذوبة اخترعتها أمهما. هي لم ترد أن تخبرهما بأنها غير شرعيين''.

في بداية الفيلم - بعد الافتتاحية في محطة القطار- نرى الشاشة مظلمة تماماً بينما نسمع صوت الصبية و هي تروي لأخيها أسطورة الخلق، وهي القصة التي روتها له مرارا بناء على طلبه، وتقول القصة أو الأسطورة: ''في البدء كان الظلام ثم كان هناك ضوء. والضوء انفصل عن الظلام، والأرض انفصلت عن البحر، وخلقت الأنهار والمحيطات والجبال. بعد ذلك خلقت الزهور والأشجار، الحيوانات والطيور.. وهذه القصة سوف لن تنتهي أبدا''.

هذا المشهد يدور في الظلام، ثم يتسلل الضوء مع انفتاح الباب و شعورنا بحضور الأم التي لا نراها. الصغيران يتطاهران بالنوم. ينغلق الباب وتبتعد الأم. هذا المشهد يفتتح البعدين: الأسطوري أو الخرافي (ما يتصل بالحكاية الخرافية) والواقعي. نحن لا نعلم شيئا عن الأم التي تعيش مع الصغيرين، إذ لا نراها و لا نسمعها على الإطلاق. هي غائبة مثل الأب تماما.. بل ربما أكثر غياباً. فإذا كان الأب حاضراً على الدوام في ذهن و مخيلة وحلم الصغيرين، فإن الأم بعيدة جداً عنهما جسمانياً وعاطفياً، وهي مجهولة الهوية.

إن الصغيرين يخرجان من الظلمة، من الجهالة، وينطلقان في رحلة نحو المعرفة، نحو إيجاد الأب. إنها رحلة بحث عن الجذور.

هما يتحركان في عالم غامض ومجهول.. و كما تقول الصبية في رسالتها الصوتية: ''يا له من عالم غريب. كلمات وإيماءات لا نفهمها. والليل الذي يخيفنا. مع ذلك فنحن سعيدان لأننا نتحرك إلى الأمام''. إنهما ينتقلان من مكان إلى آخر بالقطارات، بالسيارات، بالشاحنات. لا يعرفان كنه ما يحدث أمامهما، لا يستطيعان قراءة أو تأويل ''قصص'' الذين يتصادف وجودهم في الأمكنة التي يرتادانها: ثلج يتساقط فجأة كظاهرة إعجازية خارقة، حالة انتحار في مخفر، عروس تبكي ليلة زفافها، حصان ميت متروك في الساحة، فرقة من الممثلين الجوالين الذين يبحثون عن مسرح وعن جمهور، يد ضخمة من الرخام تُنتشل من البحر..إلى آخره.

أثناء الرحلة، يعانيان من الجوع والحرمان والاستغلال. والصبية تتعرض للاغتصاب فلا تعود كما كانت.. إنها تفقد براءتها و ثقتها بالعالم، و يستبد بها يأس خانق.

في النهاية، لا يعثران على الأب، لا يخرجان من حدود بلادهما، بل يصلان إلى الشجرة المضاءة في منظر مغلف بالسديم، حيث يعانقان الشجرة في لقطة بعيدة.

إن أنجيلوبولوس في معظم مشاهد الفيلم يحافظ على مسافة بين الكاميرا و الصغيرين كما لو يريد أن يحول دون تماهي الجمهور، على نحو مباشر أو فوري، مع الصغيرين.

ثيو أنجيلوبولوس يقدم هنا فيلما بالغ الجمال والقوة، فاتحا أمامنا عالما واقعيا و سوريالياً معا، يتمازج فيه الواقع و الأسطورة، الأزمنة و الأمكنة، الذاكرة و الخيال.

في حديث للمخرج أنجيلوبولوس عن هذا الفيلم يقول:

■ يحدث غالبا عندما تشاهد فيلما أن تشعر بأنك تعرف كل ما يوجد هناك وكل ما ينبغي معرفته بشأن المظهر الفيزيائي للأشخاص على الشاشة وليس هناك ما يمكن اكتشافه أكثر بشأنهم. فيلمي ''منظر في السديم'' هو ضرب من الحكاية الخرافية التي فيها كنت أحاول أن أحافظ على بهجة و دهشة الاكتشاف البدئي.

■ النهاية في المعالجة الأولى للسيناريو كانت تشاؤمية و تظهر الصغيرين وهما تائهان في الضباب، غير آبهَ لم أستطع مقاومة الحزن الذي ترقرق في عينيّ ابنتي عندما قرأت السيناريو. وقد تحدثت عن هذا مع أمها التي أكدت بأن الصغيرة على صواب، إذ ليس لأي شخص الحق في اختراع حكاية خرافية فيها تنتحل الوحوش هيئة رافعات و مطاحن أحجار، وتسلب من الجمهور حتى الراحة البسيطة التي توفرها النهاية المفتوحة.

غلاف فيلم «منظر في السديم»

كانت ابنتي تسألني: ''أين هو البيت؟ أين هو الأب؟'' دون أن يكون باستطاعتي تقديم إجابة مناسبة ولائقة، بل حاولت أن أجيب بطريقتي الخاصة، وذلك بأن صورت تلك الشجرة في النهاية (إذ ينقشع الضباب و يبدو الأفق للعيان، والصغيران يطوفان جذع الشجرة) .. لقد خلقت نهاية أكثر تفاؤلية.

■ الشجرة في نهاية الفيلم هي تلك التي ظهرت في فيلمي السابق ''رحلة إلى كيثيرا''. إنها إحالة إلى المنظر السينمائي الخاص بي. إن الصغيرين يجتازان المنظر السينمائي من أجل الوصول، في النهاية، إلى منظر سينمائي مختلف والذي، في اعتقادي، ينبغي أن يقترح لهما أملا متجددا.

■ الفيلم ليس فقط عن صغيرين يبحثان عن أبيهما. إنها رحلة، والتي خلالها يكتسبان معرفة عميقة بالحياة، و يتعلمان أن يؤمنا بعالمهما الخاص. وفي الطريق يتعلمان أيضا أن بريا الأشياء التي هي ليست مرئية من النظرة الأولى. يتعلمان الحب والموت، الأكاذيب والحقائق، الجمال والتدمير.

شريط السينما

الفيلم الأميركي «واجب وطني»

هو فيلم أميركي كندي، يتحدث بأسلوبه عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 وتداعياتها المختلفة التي أصبحت محوراً للعديد من الأفلام الأمريكية، ويميز الفيلم بأنه يتناول إضطهاد العرب والمسلمين في أمريكا بعد الأحداث بشكل متوازن وموضوعي، مكسراً بذلك القاعدة المألوفة في أغلب الأعمال الدرامية التلفزيونية والسينمائية التي تلصق الإرهاب بالعرب والمسلمين، ويطرح الفيلم مجموعة من التساؤلات الصعبة حول الحريات المدنية والتعسف العنصري في الولايات المتحدة الأميركية، وهل أن الإجراءات والتدابير الأمنية التي اتخذتها السلطات الأميركية موافقة للحريات الفردية والجماعية المنصوص عليها في الدستور الأمريكي، كما يسند الفيلم دور رئيسي للممثل المصري المعروف خالد أبو النجا الذي يلعب دور ضحية من ضحايا الإرهاب بعد أحداث الحادي عشر وهذا الشيء جديد في الوسط السينمائي الأمريكي إذ دائماً ما يسند للعرب أدوار الإرهابيين، ويشارك هذا الفيلم في مهرجان تريبكا السينمائي في نيويورك.

جارنر تعود لإثارتها بـ«المملكة»

من خلال فيلمها المثير والمشوق ''المملكة'' أو "The Kingdom" الذي من المقرر أن يخرجه بيتر بيرج تعود جينيفر جارنر للسينما مرة أخرى بعد أن أنجبت مؤخرا طفلتها الأولى من زوجها النجم بن أفليك، ومن المنتظر أن يبدأ التصوير عقب انتهاء عرض المسلسل التليفزيوني الذي تشاركه فيه ''الياس'' والذي يعرض على شاشة "ABC"، وتدور أحداث الفيلم حول فريق في مكتب التحقيقات الفيدرالي يحقق بتفجير إرهابي في الشرق الأوسط، الفيلم من تأليف ماثيو مايكل كارناهان ويشاركها البطولة كل من جايمي فوكس، وكريس كوبر.

مشروع «صناعة الفيلم» ينطلق بالمغرب للنهوض بالسينما

اعلن وزير الاتصال المغربي السيد نبيل بنعبد الله عن إطلاق مشروع ''صناعة الفيلم'' والذي سيبدأ أعماله بإنتاج30 فيلم في 18 شهراً، وذلك بهدف الرفع من وتيرة الإنتاج السينمائي والتلفزيوني بالمغرب، واعتبر السينمائيون المغربون أن هذا المشروع سيسبب قفزة نوعية في إعادة صياغة المشهد المنتوج التلفزيوني والسينمائي الذي من شأنه المساهمة في إبراز طاقات وكفاءات جديدة وخلاقة، وسيتم التعاقد مع شركات الإنتاج للقيام بمهمة تبني السيناريوهات بأكملها وسيساهم ذلك بالنهوض بالسينما المغربية التي تعرف أزمة حقيقية على مستوى العرض في القاعات العمومية، واعتبر المخرج المغربي نبيل عيوش مدير شركة عليان للإنتاج أن المشروع ليس اقتصاديا فقط ، بل هو مرتبط بالهوية المغربية أيضا حيث سيتم إنتاج أفلام بلهجات مختلفة تستجيب لكل مكونات المجتمع المغربي.

الجنة الآن.. الخارج عن سيطرة الإيديولوجية العربية

هاني أبو أسعد.. يحرر فيلمه من أية إدانة أو ترويج

مباغتٌ وصادمٌ هذا الفيلم الذي شاهدناه متأخراً.. مدهشٌ هذا الحلم السينمائي الذي طفى على حواس أبت إلا أن تحتفي به.. ساحرٌ ما فعله أبو أسعد بنا، ونحن نتابع فيلمه الأخير ''الجنة الآن''.. عيونٌ تراقب بحذر.. أنفاسٌ تتلهف وتتوقع وتحلم.. إلا أن ما قدمه أبو أسعد من مشاهد ولقطات، قد فاق أي توقع.

ففي أمسية سينمائية خاصة هيأها لنا ''نادي البحرين للسينما''.. كان الجميع يعيش حالة من الترقب لفيلم، وصل صيته إلى معاقل هوليوود.. بل وحصل على جائزة الغولدن غلوب، وترشح للأوسكار كأفضل فيلم أجنبي.

وهذا.. بعد أن حصل على جائزة أفضل فيلم أوروبي (بلو إنجيل) في مهرجان برلين الدولي .2005. وبعد أن طاف أغلب دول العالم (ألمانيا، بلجيكا، فرنسا، فنلندا، النمسا، اليونان، أسبانيا، هولندا، المجر، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية، استراليا....)، وعرض في أبرز مهرجاناتها.. من برلين (انطلاقته الأولى)، إلى كارلو فيفاري، ثم تلوراياد وتورنتو، إلى نيويورك وديي والقاهرة.

نبدأ بالمشهد الأخير في الفيلم، بتلك اللقطة التي تركز على عين ''سعيد'' بحركة زوم، وهو في باص وسط حشد من الجنود الإسرائيليين، ومع انتظار سماع صوت الانفجار وأشلاء الجنود تتطاير.. إلى أن ينتهي المشهد بشاشة بيضاء تشير إلى حالة العدمية التي كان يعيشها ''سعيد''... ومع انتهاء هذا المشهد.. مع هذه الشاشة البيضاء، نشعر بأنفاس المتفرج وانتظاره وهو متسمر في مقعده.. بل وحاملاً معه تساؤلاته إلى خارج الصالة.. ماذا فعل هذا الـ''سعيد''.. هل فجر نفسه..؟! هل نجح؟!

غلاف فيلم «الجنة الآن»

نحن في ''الجنة الآن''، أمام سيناريو نفسي يتحدث عن المشاعر والأحاسيس بعيداً عن السياسة. فالفيلم.. بفكرته هذه.. يقدم لنا حكاية فلسطينية، بعيداً عن نمطية الأبطال الذين قضوا حياتهم في معسكرات التدريب، وبعيداً عن القصف والقتل والدمار والجثث المتناثرة.. ليقدم لنا دراما الحياة الواقعية وسط القهر والضيم والفقر الذي يعاني منه أبطال الفيلم.. واقع مليء بكل تناقضات الحياة البسيطة.. الموت والحياة.. الحزن والفرح.. الهدوء والصخب.. في مشاهد فلسفية وعبثية مأخوذة من الواقع. هنا الموت لم يعد قدراً مكتوباً، وإنما قراراً يتخذه الفلسطيني في مواجهة المحتل ومواجهة هذا الواقع الصعب. هنا نلاحظ ذلك الطرح السينمائي الهادئ، لقضية نفسية واجتماعية خطيرة.

نجح أبو أسعد في تقديم معالجة سينمائية تتحدث عن المشاعر والأفكار، من خلال سيناريو بسيط ومركز، مبتعداً عن أي حشو درامي، ومتخذاً من التشويق عنصراً مهماً لمتابعة مصائر شخصياته متأملاً تلك القضية الخطيرة التي طرحها الفيلم. ويتخذ من السرد الدرامي عنصراً آخر لتقديم أجواء الحياة في نابلس وفي إسرائيل، في لقطات سريعة ولماحة.

هاني أبو أسعد .المخرج. قدم صورة معبرة وجميلة، متناغمة والسرد الدرامي، لا يشوبها أية شائبة.. من خلال إضاءة موفقة إلى حد كبير تخدم الحدث وتضيف إليه، ومن دون مؤثرات موسيقية حتى، لدرجة انسجام تلك الصورة مع السرد لخدمة القضية المطروحة. كذلك الأداء التمثيلي، الذي كان ينتمي لمدرسة التلقائية البسيطة.. ليس فيه مبالغة، وليس فيه عبقرية.. فنحن نتابع أداء بسيطاً يتناسب وهذا الأسلوب السردي البسيط.

في ''الجنة الآن''.. نحن أمام فيلم هام يناقش قضية خطيرة وجريئة.. ويثير حواراً جدلياً ووجهة نظر حول الاستشهادي الفلسطيني.. هذا الذي يحلم بالجنة هرباً من واقع صعب وظروف مجحفة في ظل الاحتلال الإسرائيلي، وليس تقديساً لفكرة أيديولوجية منسوخة.

المخرج هاني أبو أسعد

الفلسطيني هاني أبو أسعد في ''الجنة الآن''.. نجح في تخطي حاجز الخوف، وخرج عن السيطرة الإيديولوجية العربية، التي سيطرت على الفيلم الفلسطيني عقود من الزمن.. نراه. كاتب سيناريو . يحرر فيلمه من أية إدانة أو ترويج، ويبتعد عن الدعاية أو الخطابية أو الاستعراض.. هذا إضافة إلى أنه لم يساير النظرة الغربية للقضية الفلسطينية، بالرغم من إنتاج الفيلم الغربي. كما أنه نجح في تحاشي ذلك الإبهار السينمائي على حساب الفكرة والمضمون الذي أراد طرحه.

فـ''خالد'' و''سعيد''.. صديقان يجمعهما الفقر والهموم المشتركة، وهما يعملان في ورشة لتصليح السيارات.. لا يقدمهما الفيلم منتميين لأي فصيل سياسي، ولا هم ينتميان للتيار الديني.. إنهما يقدمان نفسيهما فداء لفلسطين، الأول عن قناعة تامة بما يفعله، والثاني هرباً من ذنب ارتكبه والده العميل للإسرائيليين، بعد تصفيته من قبل المقاومة. الاثنان يقدمان صورة حقيقية للإنسان الفلسطيني البسيط، الذي يعاني من أزمات كثيرة سببها تلك التربية الاجتماعية والأخلاقية والدينية المستمدة من التقاليد والعادات الراسخة في الوجدان العربي.. يحاولان أيضاً كسر الحصار المفروض حولهما، أولاً من المجتمع الفلسطيني، وثانياً من الاحتلال الإسرائيلي.

تشاركهما هذه الهموم صديقتهما الفتاة الفلسطينية الثرية ''سهى''، والتي استفتح بها الفيلم مشاهده الأولى، نراها قد أنهت هجرتها بالخارج وجاءت من المغرب بعد سنوات عدة هناك.. هي فتاة مثقفة مستقلة الفكر تعيش وحدها وفخورة أيضاً بحمل شرف والدها وشقيقها المناضلين وتاريخهم المشرف.. تحمل وجهة نظر تحاول أن توصلها لمن يهمها أمرهم.. إلى من حولها خاصة سعيد.

إذن.. كيف لأي متفرج في تلك الأمسية، أن يتجاسر ويلتفت يميناً أو يساراً.. خوفاً من أن تفوته لحظة الموت المرتقبة.. هذا ما جعل من الفيلم، قطعة فنية متكاملة تجسد لحظات الخوف والترقب لدى أي متفرج، عربياً كان أو أجنبياً.. هؤلاء الذين ملأوا تلك القاعة الصغيرة.. ملأوها بالرغبة في التعرف على فيلم يقدم لهم حواراً جدلياً حول أحقية عمليات الاستشهاد من عدمها.. فيلماً يحاول أن يقدم الأسئلة، وليس الإجابة عليها.. كما هي حالة الفن الأصيل.

بالأمس كان الفيلم الفلسطيني ''يد إلهية''.. قد أثار هذا الفرح في نفوس العرب من جراء شهرته في كل بقاع الأرض.. وهو الفيلم الذي استبعد عن جوائز الأوسكار بحجة أن فلسطين ليست دولة معترفاً بها في الأمم المتحدة. واليوم يأتي فيلم فلسطيني آخر ليفعل أكثر من ذلك.. ''الجنة الآن'' فيلماً استثنائياً بحق.. فيلم يستحق كل هذه الحفاوة والتقدير اللذان حضي بهما.

لقطة من الفيلم